"تأملات في الصمت الإسرائيلي تجاه الحرب على غزة"، البروفيسور عماليا ساعر، جامعة حيفا، 2.7.25

المقدمة

يسرّنا أن نرحّب اليوم في برنامجنا "عيون على غزة" بالبروفيسور عماليا ساعر، زميلة في قسم الأنثروبولوجيا بجامعة حيفا. عماليا هي باحثة أنثروبولوجية بارزة، عملت في مجالات متعددة، من بينها قضايا الجندر في المجتمع الفلسطيني داخل إسرائيل، الأنثروبولوجيا الحضرية، والمواطنة في ظل النيوليبرالية، إلى جانب مواضيع أخرى. وقبل كل شيء، فهي أنثروبولوجية بطبيعتها، تمتلك قدرة تحليلية عميقة حتى في خضم الأحداث المتسارعة. في لقاء اليوم، تقدّم لنا عدسة نقدية تساعدنا على فهم أسباب صمت الغالبية العظمى من الإسرائيليين أمام الفظائع المرتكبة باسمهم.

المحاضرة

إحدى الأسباب لصمت الإسرائيليين تجاه الجرائم التي ترتكبها إسرائيل في غزة، من وجهة نظري، هو وجود محرّم ثقافي قوي (تابو) يمنع الحديث الصريح والمباشر عن العنف العسكري الإسرائيلي المستمر عبر الأجيال. هذا المحرّم تغذيه عدة عوامل، جميعها متجذرة في بناء الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني كصراع صفري النتائج (لعبة محصلتها صفر) – وهو بناء أصبح أكثر تطرفًا واستقطابًا منذ اندلاع الحرب الأخيرة. سأعدد بعض المحركات الرئيسية لهذا المحرّم: العامل الأول هو "أسطورة الضحية الأبدية" وشعارها المرافق: "لن تتكرر أبدًا" – أي "المحرقة لن تتكرر". بصورة مأساوية، فإن القوة العسكرية الإسرائيلية لا تهدئ من شعور الإسرائيليين بأنهم ضحايا، بل تعززه، مما يؤدي إلى خلق معيار تصبح فيه أي درجة من العنف الإسرائيلي مبررة وغير قابلة للتساؤل. العامل الثاني هو الإغراق العاطفي للخطاب السياسي، الذي يمنح الأفضلية للمشاعر على حساب الآراء المسوغة، ويمنع النقاش النقدي، لأن المشاعر – بعكس الآراء – يُفترض أنه لا يمكن الجدال حولها. المثال الأبرز على ذلك هو استحضار "الصدمة الوطنية" – إذ يُفترض أن من يعيشون في صدمة لا يُطلب منهم تقديم الحساب على أفعالهم، بل يحتاجون فقط إلى دعم غير مشروط. مثال بارز آخر لهذا الغمر العاطفي هو الثنائية بين "الحب والكراهية": في صراع محصلته صفر، فإن إظهار تعاطف عاطفي مع الفلسطينيين يُفسر مباشرة كمحبة "للعدو"، وبالتالي، بحكم التعريف، ككراهية للإسرائيليين أنفسهم. كذلك، فإن التعاطف مع معاناة الفلسطينيين يعني بالضرورة إنكارًا لمعاناة الإسرائيليين. العامل الثالث، الذي لا يقل أهمية عن سابقيه، هو مركزية العلاقات العائلية في المجتمع الإسرائيلي. وسأبدأ تحديدًا من هذا العنصر.

ادعائي كالتالي: الغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين – باستثناء اليهود الأرثوذكس الحريديم – يرتبطون اجتماعيًا بشكل وثيق بالجنود المشاركين فعليًا في الاحتلال، أو الحرب، أو في جوانب أخرى من النشاط العسكري الإسرائيلي. المجتمع الإسرائيلي عائلي بطبيعته؛ فمعظم الأسر تتكوّن من أكثر من فرد واحد، وغالبًا ما يحافظ الإسرائيليون على علاقات نشطة مع أسرهم الممتدة، ويشاركون في شبكات دعم متبادل، تشمل أيضًا التزامًا عاطفيًا ورعائيًا تجاه أفراد العائلة الذين يخدمون في الجيش. في إطار هذا المنطق العائلي، القاعدة واضحة: أقرباء الجنود – بشكل مباشر أو من حيث البنية الاجتماعية، أي معظمنا – يُتوقع منهم أن يقلقوا عليهم، ويمتنعوا عن انتقادهم أو إحراجهم بشأن أفعالهم العسكرية. "هم يمرّون بما يكفي"، كما يقول المنطق. "إنهم يعرّضون حياتهم للخطر من أجلنا، فكيف يمكننا أن نثقب فقاعتهم؟" (أي: أن نجرح حساسيتهم أو ننتقدهم في لحظة هشّة). "نحن نخاف أن يصيبهم مكروه – فهل هذا هو الوقت المناسب لانتقاد الجيش؟" وبحسب هذه الآلية الثقافية، فإن دور المواطنين – سواء كانوا أقرباء فعليين أو يُعامَلون كما لو كانوا كذلك في هذا النظام الاجتماعي – هو واحد وواضح: أن يقلقوا على الجنود، يدعموهم، ويعبّروا عن امتنانهم لهم. أما انتقاد الجيش، فيُعتبر خيانة لأحبّائنا الذين يخدمون فيه ويعرّضون حياتهم للخطر.

حول هذه الآلية الأساسية، تتشكل طبقات إضافية من المعايير العائلية، وهي وإن كانت رمزية أكثر منها فعلية، إلا أنها لا تقل فعالية. الأبرز بينها هو التصوّر القائل إن "الجنود هم أولادنا جميعًا". يمكن ملاحظة ذلك في البلدات الحدودية التي

يُتمركز فيها جنود، حيث يهبّ السكان المحليون للعناية بهم: يطبخون لهم، يدعونهم للاستحمام في بيوتهم، ويساعدونهم بطرق متعددة. وكذلك في برامج الإذاعة والتلفزيون التي تبث يوميًا قصصًا عن متطوعين يطبخون لمئات الجنود أو عن عائلات "تتبنّى" الجنود الوحيدين، وما شابه ذلك. هذا البناء الرمزي، الذي يصوّر الجنود أولًا كـ"أولاد" (أو إخوة، أو شركاء، أو أبناء إخوة، وما إلى ذلك)، يسلّط الضوء على هشاشتهم، وفي الوقت ذاته يفرض امتناعًا نشطًا عن الاعتراف بالعنف الذي يمارسونه، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، في إطار مشاركتهم في النشاط العسكري.

في الواقع، كلا الجانبين من هذه المعادلة صحيحان: الجنود بالفعل عرضة للخطر، إذ إنهم يتواجدون فعليًا في قلب المواجهات العنيفة. قد يُقتلون أو يُصابون بجروح خطيرة، وهو ما يحدث بالفعل بأعداد كبيرة جدًا في هذه الحرب الجارية. وإلى جانب هشاشتهم الجسدية، فإنهم أيضًا هشّون نفسيًا وأخلاقيًا، وهذا ينطبق حتى على أولئك الذين يتواجدون في الدوائر الثانية أو الثالثة من المشاركة، مثل الجنود الداعمين أو أولئك الذين يجلسون خلف الشاشات ويشغّلون أنظمة القتال الإلكترونية. فإلى جانب خطر التعرّض لإطلاق نار أو كمائن من قبل الفلسطينيين، فهم أيضًا من يقتحمون المنازل ليلًا ويثيرون الرعب في قلوب العائلات، ويؤمّنون الحماية للمستوطنين الذين ينفّذون اعتداءات جماعية أو *هجمات منهجية* على السكان، ويمنعون بشكل مباشر المزارعين والمدنيين من الدفاع عن أنفسهم. هم من يقفون على الحواجز التي تُمارَس فيها الإساءات ضد السكان المدنيين. قد يجدون أنفسهم يدفعون رجلاً مسنًّا بخشونة يبدو كجدّهم، أو يوجّهون السلاح نحو أطفال خائفين في طريقهم إلى المدرسة، من دون أن يكون لديهم تفسير حقيقي لذلك. وفي كثير من الأحيان، قد يشهدون زملاءهم يرتكبون انتهاكات جنسية ولا يتدخلون، إمّا بدافع التضامن، أو الجبن، أو الضغط الجماعي. هم من ينفّذون، أو يشهدون عن قرب، عمليات إطلاق النار على مدنيين يقفون في طوابير الطعام، وعلى قوافل لاجئين تُهجَّر باستمرار بين مناطق مختلفة من أرض محروقة ومهدّمة.

في الأشهر الأولى من الحرب على غزة، حين كانت لا تزال هناك منازل قائمة في القطاع، كان الجنود الإسرائيليون يقيمون في بيوت لعائلات فلسطينية تم تهجيرها منها. كانوا يأكلون من طعام تلك العائلات، ويسرقون – أو يشاهدون آخرين يسرقون – ممتلكاتهم. هؤلاء الجنود، الذين يُعتبرون "أقرباءنا الأحباء" و"أبناء الجميع"، هم نفسهم القناصون، المدفعية، أو الطيارون، الذين يقتلون المدنيين ويقصفونهم. وهم أيضًا من يجلسون أمام أنظمة القتال الإلكترونية، ويملكون ثلاث ثوانٍ فقط ليقرروا إن كان هذا الشخص أو ذاك "هدفًا" للتصفية، أم مجرد مارٍّ عابر. وهم، بالطبع، أيضًا أولئك الذين في السابع من أكتوبر تُركوا في القواعد الأمامية رغم تحذيراتهم، أو اندفعوا نحو الهجوم دون أن يتلقّوا دعمًا.

كل هذه الأفعال، وغيرها كثير، تتم وسط مزيج كثيف من الخوف، الكراهية، الاستعلاء، الشهوة، الاشمئزاز، والبؤس. أحيانًا تُنفذ بدافع الملل، أو بدافع التنافس الداخلي. وهكذا، يجد كثير من الجنود الرجال أنفسهم خلال فترات طويلة من الخدمة العسكرية النشطة وقد انغمسوا في أشكال فجة بشكل خاص من الرجولة، مما يخلق لديهم طبقة إضافية من الهشاشة والقمع الذاتي. وذلك على الرغم من أن بعضهم، بطبيعة الحال، يستمتعون بكل هذا - سواء لأنه يمنحهم شعورًا بالقوة، أو نشوة وطنية، أو مالًا (في هذه الحرب، المقاتلون يتقاضون مبالغ كبيرة جدًا)، أو شعبية بين النساء. جميع الأجوبة صحيحة.

فيما يتعلق بالعائلات، تسود هنا قاعدة للصمت الطوعي. الجنود العائدون إلى منازلهم لا يروون ما فعلوه أو ما رأوه، والعائلات لا تسأل. صحيح أن العديد من العائلات تتحدث بشكل عام عن "العرب" و"مدى كراهيتهم لنا"، وهناك اتفاق واسع على أن ما يحدث لهم هو نتيجة لما يستحقونه، لأنهم، متى ما سنحت لهم الفرصة – كما حدث في أكتوبر – سيفعلون بنا أمورًا مروعة. لكن غالبًا، لا تُناقَش المواقف العنيفة الملموسة التي تحدث أثناء الخدمة الفعلية.

بدلاً من ذلك، يحب الإسرائيليون استخدام المصطلح المُخفَّف "خدمة ذات معنى"، الذي يُبرز المشاركة بحد ذاتها في المؤسسة الأهم والأرفع في الدولة. فالجيش الإسرائيلي لا يزال يُعتبر بوتقة الصهر الاجتماعي المطلقة، خطوة مركزية نحو الحراك الاجتماعي، وركيزة الأمن القومي – عمليًا، الأوكسجين لبقائنا.

وليس من قبيل الصدفة أن عبارة "خدمة ذات معنى" و"المساهمة" هما مصطلحان ضبابيان لا يتضمنان وصفًا بيانيًا لضرب الشيوخ على الحواجز، أو طرد العائلات، أو هدم المنازل على ساكنيها، أو النهب، أو الوقوف مكتوفي الأيدي أثناء تنفيذ اعتداءات جماعية. وبدلاً من ذلك، يُوضَع التركيز على الخطر الذي يهدد الجندي – وهو خطر حقيقي – وعلى التماسك بين أفراد الوحدة العسكرية.

غالبًا ما يكون الطاقم، الأصدقاء، والضباط هم السبب الرئيسي الذي يجعل الجنود يوافقون على القتال مرةً تلو الأخرى. صحيح أنهم يخدمون باسم الدولة، لكن على المستوى الفوري، هم يقاتلون من أجل رفاقهم. وهذه الرفقة، التي تتكوّن وسط النار، تكون ذات معنى عميق يجعل الكثيرين مستعدّين للموت من أجلها.

هذا، إذًا، هو دائرة العلاقات الثانية ذات الأهمية، والتي تُعيق بدورها أيضًا أي نقاش نقدي بشأن الاحتلال، والحرب، والعنف العسكري الإسرائيلي.

في سياق حالة من الألفة والحميمية الشديدة، تصبح الهرمية القيمية لمعظم الجنود، وكذلك للمواطنين في الدوائر الاجتماعية المحيطة بهم، بديهية ومفهومة ضمنًا. وفقًا للمنطق الإسرائيلي السائد، فإن "الإنسان العاقل" لا يضحّي بصديقه المقرّب من أجل "إرهابي". لأنه حتى في ظل اختلال كبير في موازين القوى، يبقى الجنود عرضة لمخاطر شخصية: قد يُصابون برصاصة قنّاص، يُقتلون في كمين، يُحاصرون داخل دبابة، أو يدخلون منزلًا مفخخًا. على الرغم من أن الإحصاءات تُظهر أن معدلات إصابة الإسرائيليين أقل بعشرات المرات من معدلات إصابة الفلسطينيين، فإن كل إصابة بالنسبة للجنود أو لعائلاتهم تُعتبر خسارة كاملة. فالجندي الذي يُقتل، يفقد معه عالم كامل. والجندي الذي يعود مصابًا إصابة بالغة، قد يحتاج إلى سنوات من العلاج والتأهيل. والجندي الذي يعود محطمًا نفسيًا، يجرّ معه أهله أو زوجته وأطفاله إلى جحيم دائم. ومن هذه الزاوية، يختفي الجانب الفلسطيني من المعادلة. وبهذا المنطق، فإن حماية الجنود – أولئك الذين يُنظر إليهم باعتبارهم "أبناءنا جميعًا" – تبرر مرارًا وتكرارًا العنف الشديد الذي تمارسه إسرائيل في غزة. بل وحتى قبل هذه الحرب التدميرية على غزة، الحرب التي يبدو أنها بدأت تُحدث شرخًا في "التابو" الذي أتحدث عنه هنا، فإن المخاوف على سلامة الجنود، أي القلق الشخصي والفوري والوالدي على "أ" أو "ب" أو "ح" (أي: أسماء رمزية لجندي مقرّب، مثل الابن، الأخ أو الحفيد)، كانت ولا تزال تُستخدم كحاجز فعال أمام أي نقد. كما قالت لي مرة قريبة عائلة – والتي أعلم اليوم أن ابنها الأكبر يعاني من اضطراب ما بعد الصدمة – حين سمعتني أنتقد الاحتلال: "هم يكرهوننا، تعلمين؟ يكرهوننا من أعماقهم"، وكأنها تقول: "نقدك للاحتلال يعني أنك تحبين العرب، وهذا غير منطقي، لأن العرب يكرهوننا".

في الختام، ما قدمته هنا هو رسم أولي وعام لـ"تابو" ثقافي. لكن ذلك لا يعني عدم وجود محاولات قمع سياسية واسعة تمنع الكثير من الإسرائيليين من التحدث عن غزة أو تحمّل مسؤولية أخلاقية تجاه ما يحدث هناك. وبالطبع، هناك أيضًا إسكات منهجي للمواطنين الفلسطينيين (وربما كان من المهم أن تخصّص المنظِّمات لقاءً لهذا الموضوع أيضًا). ومع أن حديثي اليوم اقتصر على اليهود، إلا أنني أعتقد أن جزءًا كبيرًا من فعالية هذا الإسكات ينبع من الطريقة التي يوجّه بها السياسيون، ووسائل الإعلام الرسمية، والحملات الممولة هذا الـ"تابو" القائم – ما يخلق حالة من الصمت لا تُفرَض فقط، بل تُمارَس أيضًا بشكل طوعي وغريزي.